قيمة الاحترام

(أنزلوا الناس منازلهم)

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وبعد.

إن الأخلاق أعظم ما يتسم به الفرد، فهي علامة تحضر المجتمعات، وإن المجتمعات الهمجية البربرية هي التي تعيش بلا خلق ولا سلوك ولا قيم مجتمعية.

وقد أولت الشريعة مسألة الأخلاق عناية خاصة، وتحدث القرآن في أكثر من موضع عن حسن الخلق، قال جل جلاله ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]

ولما زكى الله نبينا صلى الله عليه وسلم قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] ، وهو القائل صلوات ربي وتسليماته عليه: "مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ"[١] وهو القائل كذلك: " إِنَّ أَحَبَّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ الثَّرْثَارُونَ الْمُتَشَدِّقُونَ الْمُتَفَيْهِقُونَ، وَقَالَ: خِيَارُكُمُ الَّذِينَ إِذَا رُءُوا ذُكِرَ اللهُ، وَشِرَارُكُمُ الْمَشَّاءُونَ بِالنَّمِيمَةِ الْمُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْأَحِبَّةِ الْبَاغُونَ الْبُرَآءَ الْعَنَتَ "[٢]

---

[١] مسند الإمام أحمد بن حنبل – الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرين، إشراف: د. عبد الله التركي، مؤسسة الرسالة.، جـ ٤٥، صـ ٥١٠، رقم الحديث ٢٧٥١٨.

[٢] الروض الداني (المعجم الصغير) – الطبراني، تحقيق: محمد شكور أمرير، المكتب الإسلامي ودار عمار، ط١، ١٩٨٥م، جـ٢، صـ ٨٩، رقم الحديث، ٨٣٥.

والحق إن الحضارة الإسلامية حضارة شمولية، جمعت بين القيم المادية والقيم المعنوية، فقد اهتمت بالعلوم والفنون والأفكار، وإعلاء شأن العلم والفكر والثقافة، بجانب التشييد والعمران في شتى المجالات والمقاصد؛ حتى صارت واحدة من أعظم الحضارات التي عرفتها البشرية.

وبجانب تشييد الدور والقصور، والمدارس والعمائر باختلاف أنواعها ومشاربها، اهتمت الحضارة والشريعة بالقيم المجتمعية، وجعلت لكل شيء حقه.

ومن هذه القيم، قيمة الاحترام أو الأدب أو التبجيل، أو التوقير، المتبادل سواء على مستوى الأفراد أو المجتمعات:

أولا: معنى الاحترام.

في اللغة احترمت فلانا أي بجلته وأكرمته **والاحترام بمعني التوقير والتقدير** وإنزال الناس منازلهم، وحفظ القابهم وأسمائهم المحببة، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٨ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ۝٩﴾ [الفتح: ٨-٩]

وأمرنا بتوقير قدر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ۝٣﴾ [الحجرات: ١-٣]

لطيفة:

سبب نزول تلك الآيات اختلف أهل التأويل في نزول تلك الآيات، فقيل أنها نزلت في الشيخين أبي وعمر – رضي الله عنهما- عند جدالهما بحضرة النبي ﷺ، حتى أنهما تلاحيا من يذهب لوفد تميم، واختلافهما على الأقرع بن حابس، فكانت سبباً في امتثالهما الفوري وتوقيرهما الشديد له، حيث صار عمر رضي الله عنه يكلمه همساً إجلالاً ومخافة لحبوط عمله.[1]

وقيل إنها نزلت ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري، وهو من المبشرين بالجنة، ومن الذين بشرهم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بمقعده، كان يحب النبي صلى الله عليه وسلم حبا جما، لكن لديه مشكلة ولد بها، وهي غلظة صوته، وقوته، وعلو نبرته، فكان حديثه العادي فيه شده، يقول الإمام أحمد:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ} إِلَى قَوْلِهِ: {وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ} [الحجرات: ٢]، وَكَانَ ثَابِتُ بْنُ قَيْسِ بْنِ الشَّمَّاسِ رَفِيعَ الصَّوْتِ، فَقَالَ: أَنَا الَّذِي كُنْتُ أَرْفَعُ صَوْتِي عَلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، حَبِطَ عَمَلِي، أَنَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ! وَجَلَسَ فِي أَهْلِهِ حَزِينًا، فَتَفَقَّدَهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم، فَانْطَلَقَ بَعْضُ الْقَوْمِ إِلَيْهِ، فَقَالُوا لَهُ: تَفَقَّدَكَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم، مَا لَكَ؟ فَقَالَ: أَنَا الَّذِي أَرْفَعُ صَوْتِي فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ، وَأَجْهَرُ بِالْقَوْلِ، حَبِطَ عَمَلِي وَأَنَا

[1] المجموع اللفيف – أبو جعفر الأفطسي الطرابلسي، دار الغرب الإسلامي (بيروت)، ط١، ١٤٢٥هـ، ص٣٧٧.

مِنْ أَهْلِ النَّارِ. فَأَتَوْا النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فَأَخْبَرُوهُ بِمَا قَالَ، فَقَالَ: " لَا، بَلْ هُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ". قَالَ أَنَسٌ: وَكُنَّا نَرَاهُ يَمْشِي بَيْنَ أَظْهُرِنَا وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ [1]

وفي حديث أخر أخرجه الإمام أحمد يبرز عن تلك الشخصية المتفردة، التي تنقد ذاتها، وتحاول أن تتخلص من حظوظ الدنيا، وهوى النفس.

عَنِ الزُّهْرِيِّ، أَنَّ ثَابِتَ بْنَ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ هَلَكْتُ، نَهَى اللَّهُ الْمَرْءَ أَنْ يُحِبَّ أَنْ يُحْمَدَ بِمَا لَمْ يَفْعَلْ، وَأَجِدُنِي أُحِبُّ أَنْ أُحْمَدَ، وَنَهَى اللَّهُ عَنِ الْخُيَلَاءِ وَأَجِدُنِي أُحِبُّ الْجَمَالَ، وَنَهَى اللَّهُ أَنْ نَرْفَعَ أَصْوَاتَنَا فَوْقَ صَوْتِكَ وَأَنَا امْرُؤٌ جَهِيرُ الصَّوْتِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «يَا ثَابِتُ، أَمَا تَرْضَى أَنْ تَعِيشَ حَمِيدًا، وَتُقْتَلَ شَهِيدًا، وَتَدْخُلَ الْجَنَّةَ» قَالَ: فَعَاشَ حَمِيدًا، وَقُتِلَ شَهِيدًا يَوْمَ مُسَيْلِمَةَ [2]

وهذا الحديث يبرز ملمحا خطيرا، ويفرق بين أمرين في منتهى الخطورة، الأمر الأول أن الذين ذمتهم الآيات في حب الحمد، والخيلاء ورفع الصوت، أصناف تختلف تماما عن خلق ثابت- رضي الله عنه، فالذين يحبون الحمد صنف المنافقين الذين يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا! أما حب الرجل الحمد على موقف فعله فهذا من باب إنزال الناس منازلهم، ومن باب من لا يشكر الناس لا يشكر الله، ورفع الصوت لزمة خلقية فطرية ولد بها ليس له دخل فيها، أما الصنف الأخر الجواظ فهو الذي يرفع صخبه وصوته في كل مناسبة

[1] المسند، جـ١٩، صـ ٣٩١، رقم الحديث ١٢٣٩٩.

[2] المسند، جـ١١، صـ٢٣٩، رقم الحديث ٢٠٤٢٥.

متخيلا أن هذا من لوازم الرجولة! وأما الصنف الثالث حب الخيلاء والفخر، فهو الذي تحدثه نفسه أنه أفضل من غيره، أما حب الجمال فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، لذا بشره النبي صلى الله عليه وسلم.

فقه الأئمة مع مقام سيد الخلق صلى الله عليه وسلم

حكى القاضي عياض ونقل بأسانيده العديد من الآثار التي تشتمل على أخلاق الأئمة من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم لمقام سيد الخلق صلى الله عليه وسلم منهم أبو محذورة المؤذن – رضي الله عنه حيث أخرج أصحاب السنن عَنْ صَفِيَّةَ بِنْتِ مَجْزَأَةَ، أَنَّ أَبَا مَحْذُورَةَ، كَانَتْ لَهُ قُصَّةٌ فِي مُقَدَّمِ رَأْسِهِ ، إِذَا قَعَدَ أَرْسَلَهَا، فَتَبْلُغُ الْأَرْضَ، فَقَالُوا لَهُ: أَلَا تَحْلِقُهَا؟ فَقَالَ: «إِنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم مَسَحَ عَلَيْهَا بِيَدِهِ فَلَمْ أَكُنْ لِأَحْلِقَهَا حَتَّى أَمُوتَ، فَلَمْ يَحْلِقْهَا حَتَّى مَاتَ [1] فهنا الصحابي الجليل ما أراد أن يزيل أثرا مسته يد الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم

وهذا ابن عمر – رضي الله عنه- يتلمس أثر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتبرك به، احتراما وتوقيرا وحبا، حتى في مكان جلوسه الشريف صلى الله عليه وسلم، فقد أخرج ابن حبان من حَدِيث بن أَبى ذويب قَالَ رَأَيْت بن عُمَرَ وَضَعَ يَدَهُ على مَقْعَدِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم مِنَ الْمِنْبَرِ ثُمَّ وَضَعَهَا على وَجهه[2]

[1] المعجم الكبير – الطبراني، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية (القاهرة)، ط٢.، جـ

[2] الثقات – ابن حبان البستي، دائرة المعارف العثمانية (الهند)، ط١، ١٩٧٣م، جـ٤، صـ٩

وهذا هو إمام أهل الحجاز، وعالم المدينة سيدنا مالك بن أنس رضي الله عنه لَا يَرْكَب بِالْمَدِينَة دَابَّة وَكَان يَقُول أَسْتَحْيِي مِن اللَّهَّ أن أطَأ تُرْبَة فِيهَا رَسُول اللَّهَّ صلى الله عليه وسلم بِحَافِر دَابّة، وَرُوي عَنْه أَنَّه وَهَب للإمام اِلشَّافِعِيّ كُرَاعًا (الخيل) كَثِيرًا كَان عِنْدَه فَقَال الشَّافِعِيّ – رضي الله عنه– أمْسِك مِنْهَا دَابَّة فَأَجَابَه بِمِثْل هَذَا الْجَوَاب وَقَد حَكَى أَبُو عَبْد الرَّحْمن السُّلَمِيّ عَن أَحْمَد بن فَضْلُوَيْه الزّاهِد وكان من العزاة الرُّمَاة أَنَّه قَال: مَا مَسسْت الْقَوْس بِيَدِي إِلَّا عَلَى طَهَارة مُنْذ بَلَغَنِي أَنّ النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم أَخَذ الْقَوْس بِيَدِه. [1]

فالتبجيل والتوقير وانزال الناس منازلهم، كان من هدي سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعَنْ السيدة عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهَا، أَنَّهَا قَالَتْ: أَمَرَنَا رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ نُنَزِّلَ النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ مَعَ مَا نَطَقَ بِهِ الْقُرْآنُ، مِنْ قَوْلِ اللهُ تَعَالَى: {وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ} [2] وهو القائل صلى الله عليه وسلم «لَا يُجْلَسْ بَيْنَ رَجُلَيْنِ إِلَّا بِإِذْنِهِمَا» [3]

والحق أن مفهوم الاحترام متشعب متنوع ينقسم لشعب عده منها:

احترام المرء لذاته.

---

[1] الشفا بتعريف حقوق المصطفى (ومعه حاشية مزيل الخفاء) – القاضي عياض والشُمُنّي، دار الكتب العلمية (بيروت)، ١٩٧٩م، جـ٢، صـ٥٧.

[2] كتاب "صحيح مسلم" للإمام مسلم بن الحجاج (ت ٢٦١هـ)، بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، والصادر في أصله عن مطبعة عيسى البابي الحلبي بالقاهرة عام ١٩٥٥م، جـ١، صـ٦.

[3] سنن أبي داود مع شرحه عون المعبود – أبو داود السجستاني والعظيم آبادي، المطبعة الأنصارية (الهند)، ١٣٢٣هـ، جـ٤، صـ٤١٢، ٤٨٤٤.

كيف يصون الإنسان ذاته النبي صلى الله عليه وسلم بين حفظ الإنسان لكرامته بقوله: احفظ الله يحفظك، أي راقبه في قولك وفعلك وقيامك وقعودك، قل إن صلاتي ونسكي ومحياي....

فصن نفسك عن مواطن الزلل، ولا تجعل نفسك في موقع الشبهات كما بين النبي صلى الله عليه وسلم، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ، اسْتَبْرَأَ لِعِرْضِهِ وَدِينِهِ [1]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ يَأْخُذُ عَنِّي هَؤُلاَءِ الكَلِمَاتِ فَيَعْمَلُ بِهِنَّ أَوْ يُعَلِّمُ مَنْ يَعْمَلُ بِهِنَّ؟ فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَقُلْتُ: أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ، فَأَخَذَ بِيَدِي فَعَدَّ خَمْسًا وَقَالَ: اتَّقِ المَحَارِمَ تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ، وَارْضَ بِمَا قَسَمَ اللهُ لَكَ تَكُنْ أَغْنَى النَّاسِ، وَأَحْسِنْ إِلَى جَارِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا، وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُسْلِمًا، وَلاَ تُكْثِرِ الضَّحِكَ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ القَلْبَ [2]

فاحترامك لنفسك أن تصنها ولا تهنها ولا تجعل نفسك عرضة للسفلة والسوقة، واجتنب مواطن الزلل والحرام وترفع عن فضول الحديث، ولا يكن همك أن يرضى الناس عنك وإنما همك أن يرضى الله عنك.

فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب

وليت الذي بيني وبينك عامر وبيني وبين العالمين خراب

---

[1] المسند، جـ٣٠، صـ٣٢٤، رقم الحديث ١٨٣٧٤.

[2] المسند، جـ١٣، صـ٤٥٩، رقم الحديث ٨٠٩٦.

إذا صح منك الود فالكل هين وكل الذي فوق التراب تراب.

احترام المرء لأهله:

كل إناء ينضح بما فيه وكما قال الشاعر:

مَنْ لَمْ يَكُنْ عُنْصُرُهُ طَيِّبًا ... لَمْ يَخْرُجِ الطِّيبُ مِنْ فِيهِ

أَصْلُ الْفَتَى خَافٍ وَلَكِنَّهُ ... فِي فِعْلِهِ يَظْهَرُ بَادِيًا فِيهِ[1]

فاحترامك لغيرك، وحسن منطقك، وسلامة لسانك، وعفتك في اللسان واليد والفرج، تنم عن أصلك وعنصرك الكريم والعكس بالعكس، ومن أولى الناس ببذل المعروف لهم، والتودد إليهم، وحسن الحديث والمعشر معهم، الاهل وعلى رأسهم الأبوين.

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: ثَلَاثَةٌ لَا يَجِدُونَ رِيحَ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ خَمْسِ مِئَةِ سَنَةٍ: الْعَاقُّ لِوَالِدِهِ، وَمُدْمِنُ الْخَمْرِ، وَالْبَخِيلُ الْمَنَّانُ "[2]

وعدها النبي صلى الله عليه وسلم من أكبر الكبائر حيث قال: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ: الْإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ، أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ»[1]

---

[1] المشيخة البغدادية – أبو طاهر السِّلَفي، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، دار الرسالة (القاهرة)، ط١، ٢٠١١م، جـ٢، صـ١١٤.

[2] السنة – الخَلَّال البغدادي، تحقيق: د. عطية الزهراني، دار الراية (الرياض)، ط١، ١٩٨٩م، جـ ٥، صـ٢٦، رقم الحديث١٥٢١

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: " مَلْعُونٌ مَنْ سَبَّ أَبَاهُ، مَلْعُونٌ مَنْ سَبَّ أُمَّهُ، مَلْعُونٌ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ... [٢]

وَقَالَ طَاوس: مِن السّنة أَن يوقر أَرْبَعَة: الْعَالم، وَذُو الشيبة، وَالسُّلْطَان، وَالْوَالِد، وَمن الْجَفَاء أَن يَدْعُو الرجل وَالِده باسمه[٣]

إنزال الناس منازلهم وتوقير أهل العلم

كما سبق في الحديث فليس من أمة النبي صلى الله عليه وسلم من لم يوقر الكبير وذا الشيبة، ويعرف لذوى السلطة حقهم وقدرهم، ولا يعني تواضع العالم أو السلطان أن يمتطيه السوقة، بل يجب أن يجله الكبير والصغير، وكما قلنا كل اناء ينضح بما فيه، فالنبي أمر بالعطف على الصغير واحترام ضعفه فقال ليس منا من لم يرحم صغيرنا.

وفي الحديث الشريف، لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يُوَقِّرْ كَبِيرَنَا، وَيَرْحَمْ صَغِيرَنَا[٤] وكما مر بنا في الحديث، أن الأدب النبوي حثنا على إنزال الناس منازلهم، وتوقيرهم، ومعرفة القدر لأهل الفضل.

---

[١] تاب "الجامع" لمعمر بن راشد الأزدي (برواية عبد الرزاق الصنعاني)، بتحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، ط٢، المكتب الإسلامي ببيروت عام ١٤٠٣هـ، جـ١٠، صـ٤٦١، رقم الحديث ١٩٧٠٧

[٢] المسند، جـ٥، صـ٨٣، رقم الحديث ٢٩١٣

[٣] شرح السنة – الإمام البغوي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ومحمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، ط٢، ١٩٨٣م، جـ١٣، صـ٢٧، رقم الحديث ٣٤٣٩.

[٤] المسند، جـ١١، صـ٥٢٩، رقم الحديث ٦٩٣٧.

فعلي المسلم احترام الجميع الكبير والصغير، الطفل والكهل، الرجل والمرأة، القريب والغريب، أن يبدأ الناس بالسلام، وأن يهش لهم، ويبتسم في وجههم، ويعف عنهم، ويكظم غيظه، وأن يغض الطرف عن المحارم وعن ما لا يحل له.

ذكرنا أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر أنه من لم يوقر العالم ويعطيه حقه فقد برئت منه ذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «حَقُّ الْعَالِمِ عَلَيْكَ أَنْ تُسَلِّمَ عَلَى الْقَوْمِ وَتَخُصَّهُ بِالتَّحِيَّةِ دُونَهُمْ، وَأَنْ تَجْلِسَ أَمَامَهُ، وَلَا تُشِيرَنَّ عِنْدَهُ بِيَدِكَ، وَلَا تَغْمِزَنَّ بِعَيْنَيْكَ، وَلَا تَقُولَنَّ لَهُ قَالَ فُلَانٌ خِلَافًا لِقَوْلِهِ، وَلَا تَغْتَابَنَّ عِنْدَهُ أَحَدًا، وَلَا تَأْخُذْ بِثَوْبِهِ، وَلَا تُلِحَّ عَلَيْهِ إِذَا كَسَلَ، وَلَا تُعْرِضْ مِنْ طُولِ صُحْبَتِهِ، إِنَّمَا هُوَ بِمَنْزِلَةِ النَّخْلَةِ تَنْتَظِرُ مَتَى يَسْقُطُ عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْهَا، وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ الْعَالِمَ لَأَعْظَمُ أَجْرًا مِنَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ الْغَازِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»[1]

وعن سَهْلَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ التُّسْتَرِيَّ، يَقُولُ: النَّاسُ كُلُّهُمْ سُكَارَى إِلَّا الْعُلَمَاءُ، وَالْعُلَمَاءُ كُلُّهُمْ حَيَارَى إِلَّا مَنْ عَمِلَ بِعِلْمِهِ[2]

وعن ابن عباس – رضي الله عنه- قال: «مَنْ آذَى فَقِيهًا فَقَدْ آذَى رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، وَمَنْ آذَى رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَقَدْ آذَى اللَّهَ عز وجل»[1]

[1] ترتيب الأمالي الخميسية للشجري – يحيى المرشد بالله الشجري (ترتيب: القاضي العبشمي)، تحقيق: محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية (بيروت)، ط١، ٢٠١١م، جـ١، صـ٩١، رقم الحديث ٣٤٢.

[2] الأمالي، الشجري، جـ ١، صـ٧٥.

ولله در القائل:

إِنَّ الْمُعَلِّمَ وَالطَّبِيبَ كِلَاهُمَا ... لَا يَنْصَحَانِ إِذَا هُمَا لَمْ يُكْرَمَا

فَاصْبِرْ لِدَائِك إِنْ أَهَنْت طَبِيبَهُ ... وَاصْبِرْ لِجَهْلِك إِنْ جَفَوْت مُعَلِّمَا[1]

ولدينا من تراثنا الخالد ما يؤكد على تلك المعاني الجليلة، والقيم السامية من ذلك

عن الشعبي رَكِبَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، فَأَخَذَ ابْنَ عَبَّاسٍ بِرِكَابِهِ، فَقَالَ لَهُ: لا تَفْعَلْ يَا ابْنَ عَمِّ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم. فَقَالَ: هَكَذَا أُمِرْنَا أَنْ نَفْعَلَ بِعُلَمَائِنَا. فَقَالَ زَيْدٌ: أَرِنِي يَدَكَ. فَأَخْرَجَ يَدَهُ، فَقَبَّلَهَا زَيْدٌ وَقَالَ: هَكَذَا أُمِرْنَا أَنْ نَفْعَلَ بِأَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّنَا صلى الله عليه وسلم.[3]

لقد دأب العلماء والمحققون منذ زمن بعيد على توقير أساتذتهم وإجلال معلميهم، مرسخين أدباً نبويا رفيعاً في إنزال الناس منازلهم؛ لا ينقطع بانقطاع الأجيال.

ويتجلى هذا الأدب في حرصهم البالغ على ذِكر شيوخهم بأفخم الألقاب وأسمى نعوت التبجيل والتعظيم كالإمام الهمام والمحقق المدقق وعمدة الأنام، وغيرها من الألقاب، اعترافاً بفضلهم، وتوثيقاً لبركة سَنَد العلم وتلقيه.

---

[1] الترغيب في فضائل الأعمال وثواب ذلك – ابن شاهين البغدادي، تحقيق: محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية (بيروت)، ط١، ٢٠٠٤م، صـ ٩٠.

[2] أدب الدنيا والدين – الماوردي، دار مكتبة الحياة، ١٩٨٦م، صـ٦٨.

[3] المجالسة وجواهر العلم – أحمد بن مروان الدينوري، تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان، جمعية التربية الإسلامية (البحرين) ودار ابن حزم (بيروت)، ط١، ١٩٩٨م، جـ٤، صـ١٤٦.

ولم يكن هذا التوقير مجرد تكلف أدبي، بل كان منهجاً أصيلاً وقيمة أخلاقية راسخة؛ حتى وإن اختلفوا معهم في المسائل العلمية أو تباينت بينهم الآراء الاجتهادية، فإن حبل الود وحفظ الجميل ومكانة الأستاذية تظل دائماً فوق كل خلاف، ليبقى التواضع للعلماء ديدن النبلاء وميزاناً منصفاً يعزل خصومة الرأي عن جلال المقدار وعلو المنزلة

قال يونس الصدفي: ما رأيت أعقل من الشافعي، ناظرته يوما في مسألة، ثم افترقنا، ولقيني، فأخذ بيدي، ثم قال: يا أبا موسى، ألا يستقيم أن نكون إخوانا وإن لم نتفق في مسألة[1]

جمع وترتيب د محمد سالم الشافعي الأزهري – الأستاذ المشارك بالأزهر الأنور.

[1] أحكام القرآن (من كلام الشافعي) – البيهقي، تحقيق: أبو عاصم الشوامي، دار الذخائر، ط١، ٢٠١٨م، صـ٢٧.